الخيانـة

أسبـاب عـذاب القبـر

obeikandl.com

obeikandl.com

الخيانـة

الحمد لله رب العالمين: هو الأول فلا شيء قبله، وهو الآخر فلا شيء بعده، وهو الظاهر فلا شيء فوقه، وهو الباطن فلا شيء دونه، فقال ﷻ :{هُـوَ الأَوَّلُ وَالآخِـرُ وَالظَّـاهِرُ وَالْبَـاطِنُ وَهُـوَ بِكُـلِّ شَيْءٍ عَلِـيمٌ} [الحديد: ٣].

سبحانه: أعد الجنة والرحمة لمن أطاعه، وأعد النار وسخطه لمن عصاه، فقال ﷻ :{إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِماً فَإِنَّ لَهُ جَهَـنَّمَ لاَ يَمُـوتُ فِيهَـا وَلاَ يَحْيَى * وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُوْلَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ العُـلَى * جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِـكَ جَـزَاءُ مَـن تَزَكَّـى} [طه: ٧٤ - ٧٦].

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له: نهانا عن الخيانة، فقال ﷻ : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا اللهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنفال: ٢٧].

وأشهد أن سيدنا ونبينا محمداً ﷺ : أمرنا بأداء الأمانة، ونهانا عن الخيانة، فروى ابن ماجه أن الرسول ﷺ قال:«**أد الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك**».

فاللهم صل وسلم وبارك على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحابته أجمعين.

أما بعد: أخوة الإسلام

إننا اليوم على موعد مع سبب من أسباب عذاب القبر، ألا وهو: الخيانـة، فأعيروني القلوب والأسماع والأبصار، والله ﷻ أسأل أن يجعلني وإياكم ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، إنه ولي ذلك وهو القادر عليه.

أحبتي في الله:

بداية وقبل أن نتناول موضوعنا اليوم، يجب علينا أن نقف على بعض الحقائق، هي الأساس في موضوعنا اليوم.

الحقيقة الأولى: إن الله ﷻ حمَّل الإنسان الأمانة، وجعلها عبءًا ثقيلاً، وحملاً ضخماً، ومسئولية عامة، وشيئاً كبيراً، بعدما رفضت كل المخلوقات حملها، فلقد عرضت على مخلوقات ضخمة، فلم تكن أهلاً لحملها، ولا كان ذلك في طوقها، ولقد أشار المولى ﷻ إلى هذه الحقيقة، فقال:{إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السماوات وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} [الأحزاب: ٧٢].

السماوات الضخمة، والأرض الممتدة، أشفقت من حمل الأمانة، ورضيت واختارت أن تكون لله ﷻ مسخرة طائعة، تؤدي دورها بلا اختيار منها ولا إرادة، فهي إذن حمل ثقيل، ومسؤولية كبيرة، تحتاج إلى بذل جهد لتأديتها بالصورة التي ترضي الله ﷻ وترضي الرسول ﷺ.

وقد يتبادر إلى الذهن سؤال وهو: كيف أبت السماوات والأرض والجبال عن حمل الأمانة؟ مع أن هذه المخلوقات تدين لله ﷻ بالطاعة، كما قال ﷻ :{ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ} [فصلت: ١١].

وقال ﷻ :{أَلَمْ تَرَ أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ العَذَابُ وَمَن يُهِنِ الله فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ الله يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} [الحج: ١٨].

وهل كان هذا الإباء مثل إبليس؟

قال الإمام الرازي: لم يكن إباؤها كإباء إبليس في قوله ﷻ :{إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى أَن يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ} [الحجر: ٣١] من وجهين:

الأول: أن السجود هناك كان فرضاً، والأمانة هنا كانت عرضاً.

الثاني: أن الإباء كان هناك استكباراً، والإباء هنا استصغاراً، استصغرت أنفسهن، بدليل قوله ﷻ :{وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا} [الأحزاب: ٧٢].

وكيف حملها الإنسان ولم تحملها هذه الأشياء؟ فيه جوابان:

الأول: بسبب جهله بما فيها، وعلمهن، ولهذا قال ﷻ :{إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً} [الأحزاب: ٧٢].

الثاني: أن الأشياء نظرت إلى أنفسهن، فرأين ضَعْفَهُن فامتنعنَّ، والإنسان نظر إلى جانب المكلف، وقال: المودِع ﷻ عالمٌ قادرٌ لا يعرض الأمانة إلا على أهلها، وإذا أودعها لا يتركها، بل يحفظها بعينه وعونه، فقبلها الإنسان، واستعان بالله ﷻ على حملها، فقال:{إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: ٥].

ويجب أن يعلم الجميع أن الأمانة في نظر الشارع ليست مقصورة على الودائع التي توضع عند الإنسان ليحافظ عليها ويصونها، ولكنها تشمل الدينَ كلَه، والإيمانَ كلَه، إنها التكاليف التي يُكلف بها الإنسان، فهي بهذا واسعة الدائرة، لا تقف عند حدود الودائع التي يؤتمن عليها الإنسان، فهي رقابة العبد ربه ﷻ في كل ما يأتي وما يترك، فأداء حقوق الله ﷻ أمانة، ورعاية حقوق الناس جميعاً أمانة، وذلك على النحو الذي فصله الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه البخاري أن الرسول ﷺ قال:«كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، الْإِمَامُ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي أَهْلِهِ وَهُوَ مَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زَوْجِهَا وَمَسْؤُولَةٌ عَنْ رَعِيَّتِهَا؟، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَيِّدِهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

قَالَ ابن عمر ﷺ : وَحَسِبْتُ أَنْ قَدْ قَالَ:«وَالرَّجُلُ رَاعٍ فِي مَالِ أَبِيهِ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، وَكُلُّكُمْ رَاعٍ وَمَسْؤُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ».

فالواجب على كل مسلم أن يلتزم بالأمانة، ويبتعد عن الخيانة، لما رواه ابن ماجه أن الرسول ﷺ قال:«أد الأمانة لمن ائتمنك، ولا تخن من خانك».

الحقيقة الثانية: إن الخيانةَ والإيمانَ لا يجتمعان ألبتة في قلب الإنسان، فإذا وجد الإيمان انعدمت الخيانة، وإذا وجدت الخيانة انعدم الإيمان، ولقد أشار الرسول ﷺ إلى هذه الحقيقة، فروى أحمد والبيهقي والطبراني وابن حبان أن الرسول ﷺ قال:«لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ».

وروى البزار عن عَلِيّ ﷺ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ، فَطَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْعَالِيَةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ الله أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ فِي هَذَا الدِّينِ وَأَلْيَنِهِ، قَالَ ﷺ :«أَلْيَنُهُ: شَهَادَةُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَشَدُّهُ يَا أَخَا الْعَالِيَةِ: الأَمَانَةُ، إِنَّهُ لاَ دِينَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ، وَلاَ صَلاةَ لَهُ، وَلاَ زَكَاةَ لَهُ».

فالخيانة باب من أبواب النفاق، وعلامة على خبث النية، فروى مسلم أن الرسول ﷺ قال:«ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ، وَإِنْ صَامَ وَصَلَّى، وَزَعَمَ أَنَّهُ مُسْلِمٌ: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ».

فالخيانة من أقبح القبائح، تُسقِط كرامةَ الشخص، وتُضيع شرفه، وتُحِط من هيبته، وتُذهبُ الثقةَ به، وتنفر منها الطباعُ السليمة، والقلوبُ المؤمنة، ولقد استعاذ منها الرسول ﷺ، فروى أبو داود والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة ﷺ أن الرسول ﷺ قال:«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ؛ فَإِنَّهُ بِئْسَ الضَّجِيعُ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ؛ فَإِنَّهَا بِئْسَتِ الْبِطَانَةُ».

الحقيقة الثالثة: إن الخيانة علامة من علامات الساعة، ولقد أشار الرسول ﷺ إلى هذه الحقيقة، فروى البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ، جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ الله ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ،

فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ، حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ، قَالَ:«أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنْ السَّاعَةِ؟» قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ الله، قَالَ ﷺ :«فَإِذَا ضُيِّعَتْ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ»، قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ ﷺ :«إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ».

وفي حديث آخر يقسم الرسول ﷺ على أن الخيانة علامة من علامات الساعة، فروى أحمد والحاكم والطبراني أن الرسول ﷺ قال:«إِنَّ الله يُبْغِضُ الْفُحْشَ وَالتَّفَحُّشَ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يُخَوَّنَ الْأَمِينُ وَيُؤْتَمَنَ الْخَائِنُ، حَتَّى يَظْهَرَ الْفُحْشُ وَالتَّفَحُّشُ، وَقَطِيعَةُ الْأَرْحَامِ، وَسُوءُ الْجِوَارِ.. ».

وروى ابن ماجه وأحمد والحاكم والطبراني أن الرسول ﷺ قال:«إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ سِنِينَ خَوَادِعَ، يُتَّهَمُ فِيهَا الأَمِينُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيَكذبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُصَدِّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيَتَكَلَّمُ فِي أَمْرِ النَّاسِ الرُّوَيْبِضَةُ» قِيلَ: يَا رَسُولَ الله، وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ ﷺ :«السَّفِيهُ يَنْطِقُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ».

فإذا انتشرت الخيانة فقد فقدت البشرية صلاحيتها للبقاء، وأصبح باطن الأرض أولى لنا من ظهرها، ولم يبق لوجودنا معنى ولا طعم في هذه الحياة.

الحقيقة الرابعة: لقد وردت الخيانة في القرآن الكريم على عدة معان:

أحدها: المعصية: ومنه قول الله ﷻ :{عَلِمَ الله أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ} [البقرة: ١٨٧].

قال بعض العلماء: تخونوها بالمعصية.

الثاني: نقض العهد: ومنه قول الله ﷻ :{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ} [الأنفال: ٥٨].

الثالث: ترك الأمانة: ومنه قول الله ﷻ :{إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ الله وَلاَ تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيماً} [النساء: ١٠٥].

نزلت في طُعْمَةَ بن أُبَيْرِقٍ المنافق، كان عنده درعٌ فخانها.

الرابع: المخالفة في الدين: ومنه قول الله ﷻ :{ضَرَبَ الله مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ الله شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} [التحريم: ١٠].

الخامس: الزنا: ومنه قول الله ﷻ :{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ} [يوسف: ٥٢].

أخوة الإسلام:

لقد انتشرت الخيانة في كل مجال من مجالات الحياة، فلا يكاد يوجد مجال إلا وقد دخل فيه الخيانة، وتحقق فينا ما قاله الرسول ﷺ، فروى البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ قال:«خَيْرُكُمْ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ».

قَالَ عِمْرَانُ: فَمَا أَدْرِي قَالَ النَّبِيُّ ﷺ بَعْدَ قَوْلِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثاً، (ثُمَّ يَكُونُ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذُرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمْ السِّمَنُ)، فتعالوا معي لنتعرف على هذه المظاهر.

المظهر الأول: خيانة الله ﷻ :

وخيانة الله ﷻ تعني نقض عهدنا معه ﷻ، لأننا جميعاً بيننا وبين الله ﷻ عهد أن نعبده ولا نشرك به شيئاً، أخذه علينا ونحن جميعاً في عالم الذر، في المراحل الأولى لبداية التكوين، قبل أن نخرج إلى هذا العالم، فقال ﷻ :{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ القِيَامَةِ

إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ} [الأعراف: ١٧٢].

وقال ﷻ :{وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ الله هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القُوَّةِ المَتِينُ} [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

فالإنسان منا إذا اعترف لربه بالربوبية والوحدانية، وصرف كل أنواع العبادة لله ﷻ فقد أدى الأمانة على الوجه الأكمل؛ لقول الله ﷻ :{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لله رَبِّ العَالَمِينَ * لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ} [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

أما الإنسان الذي يفرط في حقوق الله ﷻ، ويترك المأمورات، ويفعل المنهيات، ويصرف العبادة لغير الله ﷻ، فيكون بهذا قد خان الله ﷻ.

روى مسلم عن أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال:«قال الله ﷻ : أنا أغنى الشركاء عن الشرك، فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه».

وفي رواية ابن ماجة:«فمن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري، فأنا منه بريء، وهو للذي أشرك».

وإذا نظرنا إلى القرآن الكريم نجد أن الله ﷻ نهانا عن هذا النوع من الخيانة، فقال ﷻ :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَخُونُوا الله وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنفال: ٢٧].

المظهر الثاني: خيانة الشريك شريكه:

الأصل أن تكون الشركة قائمة على الأمانة بين الشركاء، حتى يبارك الله ﷻ فيها، أما إذا دبت الخيانة بين الشركاء فإن الله ﷻ لا يبارك فيها، ولقد حذرنا الله ﷻ من هذا النوع من الخيانة، فروى البيهقي وأبو داود والدارقطني أن الله ﷻ يقول:«أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ

يَخُنْ أَحَدُهُمَا صاحبه، فَإِذَا خَانَهُ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا».

وحذرنا الرسول ﷺ أيضاً من هذا النوع من الخيانة، فروى البيهقي أن النبي ﷺ قال:«من خان شريكاً له فيما ائتمنه عليه واسترعاه له، فأنا بريء منه».

وإذا نظرنا إلى الواقع الذي نعيش فيه، نجد أننا نفرح عندما نسمع عن شركة قامت بين اثنين أو أكثر، ونفاجأ أن هذا الشركة لم تدم طويلاً، فيقوم الأطراف بتصفية الشركة، ونتعجب من هذا العمل؛ لأنه جاء بسرعة، ولكن لماذا لم نسأل أنفسنا عن سبب هذا الانفصال؟، إنها الخيانة التي دبت بين الشريكين، فالخيانة هنا هي التي عجلت بانتهاء الشركة، فيقول الله ﷻ :«أَنَا ثَالِثُ الشَّرِيكَيْنِ مَا لَمْ يَخُنْ أَحَدُهُمَا صاحبه، فَإِذَا خَانَهُ خَرَجْتُ مِنْ بَيْنِهِمَا»، وكيفية خروج الله ﷻ : بنزع البركة.

المظهر الثالث: وضع الشخص في المكان الذي لا يستحقه:

فمن ولىَّ من بيده الأمور إنساناً منصباً أو ظيفةً، ليس هو أهلاً لها، وهناك من هو أولى منه وأكفأ، فقد اتصف بالخيانة، وإلى هذا النوع من أنواع الخيانة أشار الرسول ﷺ إليه، فروى الحاكم أن الرسول ﷺ قال:«من استعمل رجلاً من عصابة، وفي تلك العصابة من هو أرضى لله منه، فقد خان الله، وخان رسوله، وخان المؤمنين».

فالأمانة تقتضي بأن نصطفي للأعمال أحسن الناس قياماً بها، كما يقال: الرجل المناسب في المكان المناسب، أما إذا ملنا عن هذا إلى غيره، لهوى، أو رشوة، أو قرابة، فقد ارتكبنا خيانة فادحة.

ولقد ضرب لنا الرسول ﷺ المثل الأعلى في الأمانة في إسناد العمل إلى أهله، فروى مسلم أن أبا ذر قال: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله أَلاَ تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ ﷺ : فَضَرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ:«يَا أَبَا ذَرٍّ: إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ، إِلاَّ مَنْ أَخَذَهَا بِحَقِّهَا، وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا».

ولقد حذرنا الرسول ﷺ من هذا النوع من الخيانة، فحكم بعدم قبول الأعمال ممن يتصف بهذا النوع من الخيانة، وأن عليه لعنة الله ﷻ، فروى الحاكم أن الرسول ﷺ قال:«من ولي من أمر المسلمين شيئاً، فأمر عليهم أحداً محاباةً، فعليه لعنة الله، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً، حتى يدخله جهنم».

بل جعل الرسول ﷺ هذا النوع من أنواع الخيانة علامة من علامات الساعة، فروى البخاري أن الرسول ﷺ قال:«إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرْ السَّاعَةَ».

وإذا نظرنا إلى الواقع الذي نعيش فيه نجد أنه قد انتشر هذا النوع من أنواع الخيانة، فالشخص منا قد يتولى أي منصب بطرق غير مشروعة، وذلك بالرشوة، أو المحسوبية، أو بأي طريق آخر.

فالأمة التي لا أمانة فيها في تولية المناصب العامة، هي الأمة التي تبعث فيها الشفاعات بالمصالح المقررة، وتطيش بأقدار الرجال الأكفاء؛ لتهملهم وتقدم دونهم.

المظهر الرابع: إهمال الموظف في أداء عمله:

فنجد الموظف يخون عمله بكسله وإهماله وتقاعده عن العمل، وسيره وراء الرشوة والمحسوبية والمجاملة، وعدم مراقبة رب الأرض والسماء.

تجد الموظف يترك عمله ويهمله لغفلة رئيسه عنه، ويتحايل لمنفعة عارضة، ولذة عابرة، فنجد عندما يذهب إليه صديق أو قريب ثري، يرحب به، ويفتح له الأبواب المغلقة، ويقضي له الحاجات ولو على حساب المصلحة العامة.

وفي نفس الوقت إذا ذهب إليه صاحب مصلحة وحق، عبس في وجهه، وعقد له السهل، فيرجع خائباً خاسراً، فلا يجد الفرد منا مفراً إلا أن يلتجأ إلى الوسطة، وربما يضحي ببعض ماله ليصل إلى حقه،

فضلاً عما يلاقيه من مشقات وتعب وعذاب وبلاء وخزي وذل، ولو راقب الموظف ربه وحاسب ضميره، وأدى الأمانة على أكمل وجه؛ لأراح نفسه، وأراح الناس، وقضيت المصالح، وانتشرت الثقة، وبات كل إنسان فينا آمناً على مصالحه وحقوقه.

المظهر الخامس: استغلال الفرد منصبه الذي يتولاه:

فمن استغل منصبه الذي عين فيه، لجر منفعة إلى شخصه، أو إلى أحد من قرابته، فهو خائن، وإلى هذا النوع من الخيانة أشار إليه الرسول ﷺ في الحديث الذي رواه أبو داود والبيهقي وابن خزيمة:«مِنِ اسْتَعْمَلْنَاهُ عَلَى عَمَلٍ فَرَزَقْنَاهُ رِزْقًا، فَمَا أَخَذَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَهُوَ غُلُولٌ».

والله ﷻ يقول:{وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ} [آل عمران: ١٦١].

ولقد شدد الإسلام في ضرورة التعفف والبعد عن استغلال النفوذ، وشدد في رفض المكاسب المشبوهة، فروى البخاري أن الرسول ﷺ اسْتَعْمَلَ رَجُلاً مِنَ الأَنْصَارِ، يُقَالُ لَهُ: ابْنُ اللُّتْبِيَّةِ عَلَى الصَّدَقَةِ، فَلَمَّا قَدِمَ بَعَثَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ لِيُحَاسِبَهُ، فَقَالَ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِيَ لِي، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ:«إِنَّا نَسْتَعْمِلُ رِجَالا مِنْكُمْ عَلَى مَا وَلانَا الله ﷻ، فَإِذَا قَدِمَ أَحَدُكُمْ، قَالَ: هَذَا لَكُمْ، وَهَذَا أُهْدِيَ إِلَيَّ، فَهَلا جَلَسَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ وَأُمِّهِ فَيَنْظُرَ مَا يُهْدَى إِلَيْهِ، مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ عَمَلاً فَلْيَأْتِنَا بِقَلِيلِهِ وَكَثِيرِهِ، وَلْيَحْذَرْ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ بِبَعِيرٍ يَحْمِلُهُ عَلَى رَقَبَتِهِ لَهُ رُغَاءٌ، أَوْ بَقَرَةٍ لَهَا خُوَارٌ، أَوْ شَاةٍ تَيْعَرُ».

المظهر السادس: خيانة الحياة الزوجية:

فما يضمه البيت من شؤون العشرة بين الرجل وزوجته، يجب أن يُطوى في أستار مسبلة، فلا يطلع عليه أحد مهما قرب.

وتتحقق الخيانة في الحياة الزوجية: إما بإعانة الزوج على

المعصية، كعقوق والديه مثلا، أو مقاطعة أرحامه، أو أكل الحرام، إلى غير ذلك من أنواع الحرام، وإما بالعمل على نشر أخبار الحياة الزوجية، فروى البخاري أن الرسول ﷺ قال:«..ولولا حواء لم تَخُنْ أنثى زوجها».

قال ابن حجر في فتح الباري: فيه إشارة إلى ما وقع من حواء في تزيينها لآدم الأكل من الشجرة، حتى وقع ذلك، فمعنى خيانتها: أنها قبلت كما زين لها إبليس حتى زينته لآدم ﷺ... وليس المراد من الخيانة هنا: ارتكاب الفواحش، حاشا وكلا.

وقال: وفي الحديث إشارة إلى تسلية الرجال فيما يقع لهم من نسائهم، بما وقع من أمهن الكبرى، وأن ذلك من طبعهن، فلا يفرط في لوم من وقع منها شيء من غير قصد إليه، أو على سبيل الندور، وينبغي لهن أن لا يتمكن بهذا في الاسترسال في هذا النوع، بل يضبطن أنفسهن، ويجاهدن هواهن.

والسفهاء من العامة يثرثرون بما يقع بينهم وبين أهلهم من أمور، وهذه خيانة حرمها الله ﷻ، وإلى هذا النوع من الخيانة أشار إليه القرآن الكريم، فقال ﷻ :{ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ وَامْرَأَةَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللهِ شَيْئاً وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ} [التحريم: ١٠].

قال ابن عباس: كانت امرأة سيدنا نوح ﷺ تقول للناس: إنه مجنون، وكانت امرأة سيدنا لوط ﷺ تخبر بأضيافه، وقال: ما بغت امرأة نبي قط.

وقيل: خيانتهما النميمة، إذا أوحى الله ﷻ إلى نوح ﷺ أو إلى لوط ﷺ شيئاً أفشتاه إلى المشركين.

وقيل: كانت امرأة سيدنا لوط ﷺ إذا نزل به ضيف دخنت لِتُعلم قومها أنه قد نزل به ضيف.

وأشار الرسول ﷺ إلى هذا النوع من الخيانة، فروى مسلم وأبو داود وأحمد أن الرسول ﷺ قال:«إِنَّ مِنْ أَشَرِّ النَّاسِ عِنْدَ الله مَنْزِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الرَّجُلَ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا».

وروى أحمد عن أسماء بنت يزيد أنه كانت عند الرسول ﷺ، والرجال والنساء قعود عنده، فقال:«لَعَلَّ رَجُلًا يَقُولُ مَا يَفْعَلُ بِأَهْلِهِ، وَلَعَلَّ امْرَأَةً تُخْبِرُ بِمَا فَعَلَتْ مَعَ زَوْجِهَا» فَأَرَمَّ الْقَوْمُ، فَقُلْتُ: إِي وَالله يَا رَسُولَ الله، إِنَّهُنَّ لَيَقُلْنَ وَإِنَّهُمْ لَيَفْعَلُونَ، قَالَ ﷺ :«فَلَا تَفْعَلُوا، فَإِنَّمَا ذَلِكَ مِثْلُ الشَّيْطَانِ لَقِيَ شَيْطَانَةً فِي طَرِيقٍ فَغَشِيَهَا، وَالنَّاسُ يَنْظُرُونَ».

المظهر السابع: خيانة الشهادة:

ويكون ذلك بأحد طريقين:

الأول: بشهادة الزور: ونحن نعلم خطورة شهادة الزور، فالرسول ﷺ جعل شهادة الزور علامة من علامات الساعة، فروى أحمد أن الرسول ﷺ قال:«إن بين يدي الساعة شهادةَ الزور، وكتمانَ الحق».

وسوى الرسول ﷺ بين شهادة الزور والشرك بالله ﷻ، فروى أحمد والترمذي أن الرسول ﷺ قال:«أيها الناس: عَدَلَت شهادةُ الزور إشراكاً بالله ﷻ»، ثم قرأ الرسول ﷺ قول الله ﷻ :{فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ} [الحج: ٣٠]

الثاني: كتمان الشهادة: فبعض الناس لا يكذب في الشهادة، لكنه يكتمها، وربما كان في كتمانها إضاعة للحقوق، أو انتصاراً للباطل، أو ضياعاً للدين والدنيا معاً، ومن هنا حذرنا المولى ﷻ من كتمانها، فقال ﷻ :{وَلاَ تَكْتُمُواْ الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ والله بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٨٣].

بل حكم المولى ﷻ على كاتم الشهادة بأنه ارتكب أقبح أنواع الظلم، فقال ﷻ :{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ الله وَمَا الله بِغَافِلٍ عَمَّا

تَعْمَلُونَ} [البقرة: ١٤٠].

وإن كتمان الشهادة يتساوى في الإثم والجرم مع شاهدة الزور، ولقد أشار الرسول ﷺ إلى هذا، فروى الطبراني أن الرسول ﷺ قال:«من كتم شهادة إذا دعي إليها، كان كمن شهد الزور».

المظهر الثامن: خيانة الكيل والميزان:

لقد شدد الشرع على تحقيق العدل في الوزن والكيل، فقال ﷻ : {لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ} [الحديد: ٢٥].

وقال ﷻ :{وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ المِيزَانَ * أَلاَّ تَطْغَوْا فِي المِيزَانِ * وَأَقِيمُوا الوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلاَ تُخْسِرُوا المِيزَانَ} [الرحمن: ٧ - ٩].

وروى الترمذي والحاكم أن الرسول ﷺ قال لأصحاب الكيل والميزان:«إِنَّكُمْ قَدْ وُلِّيتُمْ أَمْرًا فِيهِ هَلَكَتِ الأُمَمُ السَّالِفَةُ».

وإن خيانة الكيل والميزان تكون بالتطفيف، ولقد شدد الله ﷻ الوعيد لمن يفعل ذلك، فأعد الله ﷻ ودا في جهنم لو سيرت فيه جبال الدنيا لذابت من شدة حره، فقال ﷻ :{وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ * أَلاَ يَظُنُّ أُوْلَئِكَ أَنَّهُم مَّبْعُوثُونَ * لِيَوْمٍ عَظِيمٍ* يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمِينَ} [المطففين: ١ - ٦].

أخوة الإسلام:

تعالوا معي لنتعرف على العقوبات التي أعدها الله ﷻ للخائن.

أولا: العقوبات الدنيوية:

١ – عدم الهداية: قال ﷻ :{ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ الله لاَ يَهْدِي كَيْدَ الخَائِنِينَ} [يوسف: ٥٢].

٢ – عدم محبة الله ﷻ : قال ﷻ :{وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ الخَائِنِينَ} [الأنفال: ٥٨].

وقال ﷻ :{وَلاَ تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّاناً أَثِيماً} [النساء: ١٠٧].

وقال ﷻ :{إِنَّ الله يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الله لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ} [الحج: ٣٨].

٣ – نفي الإيمان: روى البيهقي والطبراني أن الرسول ﷺ قال:«لا دِينَ لِمَنْ لا أَمَانَةَ لَهُ».

٤ – النفاق: فروى البخاري ومسلم أن الرسول ﷺ قال:«أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنْ النِّفَاقِ حَتَّى يَدَعَهَا: إِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ».

٥ – عدم قبول الشهادة: روى أحمد وأبو داود أن الرسول ﷺ قال:«لا تجوز شَهَادَةُ الْخَائِنِ وَالْخَائِنَةِ، وَرَدَّ شَهَادَةَ الْقَانِعِ لأَهْلِ الْبَيْتِ، وَأَجَازَهَا لِغَيْرِهِمْ».

قَالَ أَبُو دَاوُدَ: الْقَانِعُ الأَجِيرُ: التَّابِعُ، مِثْلُ الأَجِيرِ الْخَاصِّ.

ثانيا: العقوبات الأخروية:

١ – اللعن: روى مسلم أن الرسول ﷺ قال:«ذِمَّةُ الْمُسْلِمِينَ وَاحِدَةٌ، يَسْعَى بِهَا أَدْنَاهُمْ، فَمَنْ أَخْفَرَ مُسْلِمًا، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ الله وَالْمَلائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لاَ يُقْبَلُ مِنْهُ صَرْفٌ وَلا عَدْلٌ»

٢ – خصومة الله ﷻ للخائن يوم القيامة: روى البخاري أن الرسول ﷺ قال: قال الله ﷻ :«ثَلاَثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ غَدَرَ وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُعْطِ أَجْرَهُ».

٣ – الفضيحة يوم القيامة: روى مسلم أن الرسول ﷺ قال:«إِذَا جَمَعَ الله الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، يُرْفَعُ لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ».

٤ – القصاص: روى مسلم وغيرُه أن الرسول ﷺ قال:«حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ، كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ فَيَخُونُهُ فِيهِمْ، إِلاَّ وُقِفَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيَأْخُذُ مِنْ عَمَلِهِ مَا شَاءَ، فَمَا ظَنُّكُمْ؟».

وفي رواية لأبي داود أن الرسول ﷺ قال:«حُرْمَةُ نِسَاءِ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ، كَحُرْمَةِ أُمَّهَاتِهِمْ، وَمَا مِنْ رَجُلٍ مِنَ الْقَاعِدِينَ يَخْلُفُ رَجُلاً مِنَ الْمُجَاهِدِينَ فِي أَهْلِهِ، إِلاَّ نُصِبَ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَقِيلَ لَهُ: هَذَا قَدْ خَلَفَكَ فِي أَهْلِكَ، فَخُذْ مِنْ حَسَنَاتِهِ مَا شِئْتَ».

٥ – الهاوية في النار: روى أحمد والبيهقي أن ابن مسعود ﷺ قال: يؤتى بالعبد يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله، فيقال: أد أمانتك، فيقول: أي رب كيف؟ وقد ذهبت الدنيا، قال: فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، فينطلق به إلى الهاوية، ويمثل له أمانته كهيئتها يوم دفعت إليه، فيراها، فيعرفها، فيهوي في أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه، حتى إذا ظن أنه خارج زلت عن منكبيه، فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين، ثم قال: الصلاة أمانة، والوضوء أمانة، والوزن أمانة، والكيل أمانة، وأشياء عددها، وأعظم ذلك الودائع، فأتيت البراء بن عازب فقلت: ألا ترى إلى ما قال ابن مسعود ﷺ قال: كذا، قال كذا، قال: صدق، أما سمعت يقول الله ﷻ :{إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا} [النساء: ٥٨].

* * *